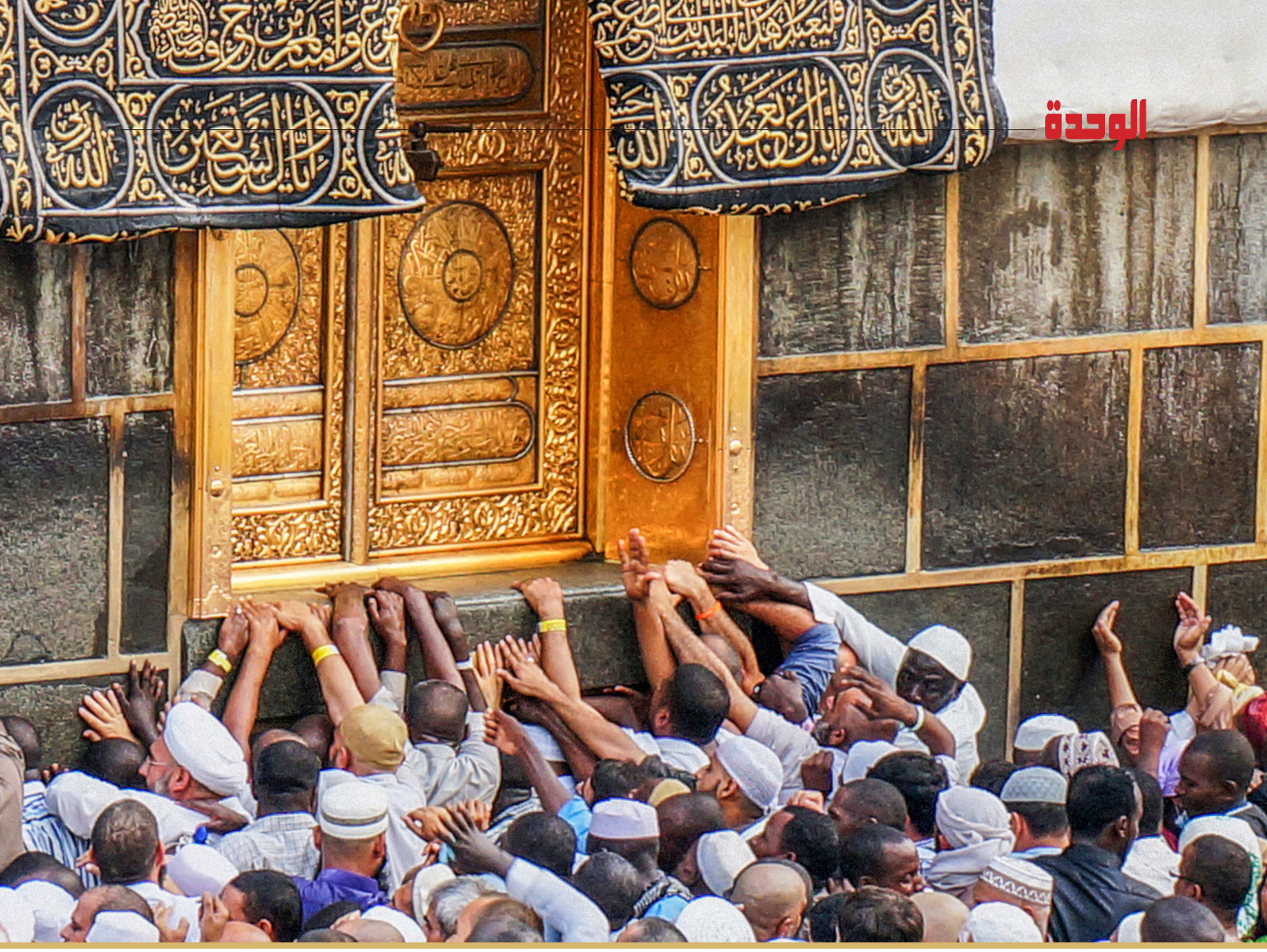

حج البراءة، الفريضة الحاضرة الغائبة

الحج لغةً واصطلاحاً

الحج في اللغة يعني القصد، أو القصد للزيارة. قال الخليل: هو كثرة القصد، وسمّيت الطريق محجّةً لكثرة التردّد. وسمّي الحاج بذلك: لأنه يتكرر للبيت لطواف القدوم، والإفاضة، والوداع.

وفي المصطلح الإسلامي هو الشعيرة السنوية التي تتمثّل في قصد المسلم مكّة المكرمة في وقت محدّد، ليطوف حول الكعبة ويقيم في ميدان عرفات ويأتي أعمالاً أخرى معروفة بمراسم أو شعائر الحج. قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾.

حقيقة الحج

والحج عبادةٌ تتّحد فيها عناصر كثيرة كالخضوع والتضرّع والزهد والتقوى وذكر الله والتضحية في سبيله، وإنفاق المال والانقطاع عن الشهوات وملذّات الدنيا لإظهار العبودية لله عز وجل في أنقى وأعمق حالاتها.

فالحج إذاً، هو سيرٌ وسلوكٌ معنويٌّ وهجرةٌ إلهية.. وتتجلّى في هذا السفر العبودية لله بأجلى صورها وأبهاها، فكلّ شعيرة وكلّ منسك وكلّ حكم شرعي في هذا السفر، هو ترجمة مباشرة لحقيقة العبودية وإعلان من العبد بخضوعه لربه ووضعه لنير المذلّة على عنقه والتصاغر أمام مالك الملوك وامتثاله له وحده ورفضه لكل ربٍّ أو معبودٍ دونه.

ومن أهداف العبادات أن تترسّخ المعارف والأخلاق الإلهية في قلب الإنسان وأن يتجلّى التوحيد في قلبه ثم يسري منه إلى كامل وجوده الباطني والظاهري.

وإذا دقّقنا في فريضة الحج نجد أن هذه الأهداف موجودة فيه بقوّة، فالحج يتمّ إلى بيت الله الحرام الكعبة المعظّمة، وهي مركز التوحيد والمركز الأوحد لتحطيم الأصنام، فقد رفع نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام نداء التوحيد من الكعبة في أول الزمان، وسيرفعه فيها في آخر الزمان الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف. قال الله تعالى لخليله إبراهيم: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾.

وقال عزّ من قائل: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾. وهذا التطهير يكون من كلّ الأرجاس وعلى رأسها الشرك، وفي سورة التوبة نقرأ: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾.

أبعاد الحج

إنّ فريضة حج بيت الله هي من أبرز الفرائض التي تحوي أبعاداً متعددةً ومتنوعةً ترتبط بالحياة الفردية والاجتماعية بشكلٍ عظيم، وهي ذات تأثيرٍ عميقٍ في الجسم والنفس والفكر. وهذه الأبعاد المختلفة ليست منفصلة، بل يمتزج البُعد الروحي مع البُعد التربوي مع البُعد السياسي والعبادي والاقتصادي والثقافي والفقهي والأخلاقي، بحيث تكمل بعضها بعضاً لتصبح كياناً واحداً هو الحج الإسلامي. ولو أدّى الحاجّ هذه الفريضة بالشكل الصحيح، فإنه سينال توفيقات كبيرة في جميع الميادين المادية والمعنوية، وكذلك ستنعكس آثارها الطيبة على المجتمع الإسلامي أيضاً.

ولهذه الفريضة فوائد جمّة على الصعيدين الفردي والاجتماعي باعتبار أن العبادات في الإسلام ليست محصورةً في بعدٍ واحد بل هي تشمل جميع أبعاد الإنسان، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ طالما أن هدف العبادات تكامل الإنسان في حياته في الدنيا وحياته الحقيقية في الآخرة.

ويبرز البعد المعنوي للحج عندما يقارن بالعبادات الأخرى، لما يحتويه من أحكام مفعمة بالرموز والأسرار. ويتمتع الحج بفضل مناسكه الخاصة، برياضات خاصّة تؤثّر في تزكية النفس وعلوّ الدرجات المعنوية.

الآثار المعنوية للحج

يترتّب على أداء الحج بشروطه وآدابه آثار وثمار معنوية عظيمة للإنسان، وأهم هذه الآثار:

١ ـ توحيد الله ومعرفته: فإنّ الحجّ يجسّم لنا التوحيد، ونفي الشرك بكلّ مظاهره ومعالمه. قال الإمام الصادق عليه السلام: "وزر البيت متحقّقاً لتعظيم صاحبه ومعرفة جلاله وسلطانه".

٢ ـ التقرّب إلى الله سبحانه: فمن يقصد مكّة حاجّاً إنّما يحجّ إلى ربّه ويقصد الله في عرشه كما ورد في دعاء الإمام الصادق عليه السلام عند خروجه للحج أو العمرة: "...اللهمّ إنّي عبدك وهذا حُمْلَانُكَ والوجه وجهك والسّفر إليك..ولَقّني من القول والعمل رضاك فإنّما أنا عبدك وبك ولك".

٣ ـ ضيافة الله سبحانه: فإن الخلق كلّهم في ضيافة الله بالمعنى الأعم. ولكن الحج ضيافة الله بالمعنى الخاص ومأدبته، قال الإمام الصادق عليه السلام: "إنّ ضيف الله عزّ وجلّ رجل حج واعتمر، فهو ضيف الله حتّى يرجع إلى منزله".

٤ ـ التحقّق بالعبودية لله تعالى: إن الهدف من الخلق وسرّ الخلافة في الأرض وفلسفة الحياة هو العبادة والمعرفة، وهذا ما يتجلّى في الحجّ بصورة أبهى وأجلّ، لكون الحجّ تسليماً لله، يحرم فيه الحاج ويؤدّي جميع المناسك استجابة لأوامر الله تعالى. فالحج إذاً يرسّخ في العبد عبوديته لله سبحانه وتعالى. ففي حديث طويل عن الإمام الرضا عليه السلام قال: "إنّما أُمروا بالحجّ لعلّة الوِفادة إلَى الله عزّ وجل...".

٥ ـ تجذّر الجانب المعنوي في النفس: فإن للزمان والمكان والمناسك المقدّسة آثاراً معنويّة وروحيّة تنعكس على الروح الإنسانيّة، فإنّها ممّا توجب طهارة وسلامة الباطن. قال أمير المؤمنين عليه السلام: "...والحجّ تقوية للدين...".